مجموعة قصصية

تأليف: رضا نايل

رائحة القهوة

مجموعة قصصية

تأليف: رضا نايل

إهداء

إلى الآنسة الصغيرة

باقة ورد حمراء

لاتزال بعض الكدمات بادية أسفل عيني وفي شفتي وجبهتي، رأيتها وأنا أغسل وجهي، فابتسمت في وجوم، فعما قريب ستختفي، وخرجت من الحمام، ووقفت عاريا أمام المرآة في غرفة النوم، وتلك الابتسامة الواجمة التي لازالت عالقة بشفتي تستجدي دموعا من عيني، وأنا أتحسس ضلوعي المكسورة من فوق الجبيرة، فاتجهت نحو الشرفة، وأنا لازلت عاريا، فلم أعد أشعر بالخجل من أن يراني الآخرون عاريا، فتحت باب الشرفة، فتدفق شلال من الهواء البارد بقوة فلسع جسدي العاري، فأغلقته مسرعا، والهواء يقاومني حتى شعرت بألم في ضلوعي، ما كاد يهدأ حتى بدأ ألم أكبر وأقوى مع نوبة سعال حادة، فالجو في الخارج يبدو شديد البرودة، والرياح تثير الغبار وتحمل الأوراق الممزقة والأكياس البلاستيك من الشارع، فتتصاعد لأعلى في شكل حلزوني، وكل شئ في الأفق الممتد خلف زجاج الشرفة قد صار رمادي اللون، فالشمس غائبة في السماء المكفهرة التي تنذر بسقوط أمطار غزيرة، فأغمضت عيني، وأنا أسترجع في هذا الطقس الرمادي البارد للمرة الأولى ما حدث، وتمنيت لو أفتحها فأجدني كنت أحلم، فلم أكن متأكدا أن ما حدث

لي قد حدث بالفعل، فهناك أشياء تقع لا يمكن أبدا للإنسان أن يؤكد وقوعها إلا إذا بحث عنها فوجدها في مكان ما بذاكرته..

فما إن خرجت من محطة مترو التحرير في اتجاه المجمع، حتى اصطدم بي أحدهم، وإذ باثنين آخرين يلتفان في نفس اللحظة حولي ، ثم قال الذي أمامي:

• تفضل معنا بهدوء.

لم يعطني الآخران أي فرصة للإجابة، وقبضا على ذراعي، ودفعاني نحو سيارة كانت تنتظر عند مسجد عمر مكرم، وتلك المفاجأة جعلت وجهي خاليا من أي تعبير، ورأسي جوفاء فارغة من أي تفكير، فأحسست بدوار، وأغلقت نصف عيني محدقا، فرأيت السيارة تتجه ناحية ميدان سيمون بوليفار، ومنه إلى شارع يوسف الجندي خلف المجمع، ثم شارع الشيخ ريحان، وبعد قليل رأيت بنصف عيني من زجاج السيارة الأمامي بوابة حديدية كبيرة، ما كدنا نقف أمامها حتى فتحت أبوابها، وبعد ثوانٍ من عبورها غاب ضوء النهار، وأحسست أننا نسير في طريق حلزوني متجهين لأسفل، فقد كنت أتمايل بين الفنية والأخرى يمينا ويسارا نحو الجالسين إلى جواري، حتى وصلنا لمكان متسع شبه مظلم يبدو أنه مرأب للسيارات، فقد رأيت في ضوء السيارة الممتد كقمع طويل عددا من السيارات، ثم وكزني أحدهم لأنزل، بينما فتح الآخر الباب، فأمسكا بي ودفعاني نحو ممر ضيق طويل، الضوء في أوله خافت جدا، وكلما اقتربنا من نهايته زاد بشكل تدريجي، حتى وقفنا أمام الباب الوحيد في الممر، وعنده يتدلى المصباح.

فتح الذي في الأمام الباب، ودفعني الآخران كالعادة إلى الداخل ووقفوا لدى الباب.

كانت الحجرة ضيقة وخالية من أي شئ، وشبه مظلمة حيث يصلها شعاع واهن من المصباح الذي يجاهد ضوؤه المتعب ليضئ الحجرة والممر.

وبعدها مباشرة سمعت وقع خطوات مسرعة تقترب وتقترب، وإذ بصاحبها واقف عند الباب ممسكا بمقبضه، وظله ينعكس في الضوء القادم من الخلف وينتهي على حذائي، ثم تقدم نحوي ببطء وكأنه حيوان مفترس يستعد للانقضاض على فريسته، ومع كل خطوة يصعد ظله على جسدي حتى أغرقني، ورفع يده التي بدى ظلها على الحائط كبيرا وكأنها لوحش أسطوري، وصفعني بكل قوة وهو يقول:

- يا أهلا بالرومانسي.

لم أشعر بألم الضرب أو الإهانة، فقد حالت الدهشة بيني وبين الألمين عندما سمعته يقول: "رومانسي"..وقلت في نفسي.

- لابد أنه اسمي الحركي ؟!

أشار بإصبعه، فدخل الثلاثة الذين أمسكوا بي مسرعين، واجتازوا المسافة في خطوتين، والتفوا حولي، فازدحمت الغرفة بأجسادهم القوية الممشوقة، وغاب الضوء وراء قاماتهم الطويلة، ثم قال:

- فتشوه..لا قلعوه، ونفتش على راحتنا.

أخذوا ملابسي وراحوا يفتشونها أسفل المصباح.

وحبات العرق البارد تتقاطر منزلقة على ظهري العاري، وعيناي تذرفان دموعا من غير بكاء، ثم ارتجفت، ورأسي الجوفاء تمتلئ بالأفكار التي يموج بعضها ببعض، حول وجودي الذي انتهى، فعما قريب سأتبخر من ذاكرة كل من يعرفني، بعد تعذيب بإطفاء السجائر في جسدي العاري، وإدخال عصى غليظة في مؤخرتي.

أسندت ظهري للحائط خلفي، وقدماي ملتصقتان، محاولا إدراك الأرض بيدي لأجلس، فأحسست بالبول الساخن يسيل على فخدي.

ثم سمعته يقول.. وأنا متكور على جنبي، وقبضتاي مضمومتان أسفل ذقني ليحملا رأسي التي أصبحت ثقيلة كجبل، رغم أنها ممتلئة بالهراء حول الحياة وأنا على وشك الموت ، ومرفقاي يلامسان ركبتي الملتصقتين ببطني:

- قم يا حيوان.

أمسكا بي في اشمئزاز قائلين :

- لقد تبول على نفسه.

ضحك بجنون وقال:

- ماذا ستقول عندما تأتي وتراكَ هكذا.

قلت، وصوتي لا يكاد يغادر حنجرتي، وأنا أمدد ركبتي المقوستين وهم يرفعاني لأقف :

- ومن تلك ؟!

قال بحدة وسخرية :

- أمك..

حاولت استجماع ما لديِّ من قوة فلم أجد شيئا، فقلت في خوف وأنا أبكي:

- أمي ماتت.

- أعرف أن أمك ماتت من ١٦ سنة.

رفعت حاجبي بصعوبة بالغة وقلت بصوت متهدج:

- فمن تلك التي ستأتي لتراني هكذا؟!

- التي تنتظركَ في الميدان.

ترددت كلماته في رأسي محدثة صدى لصوته في أذني لعلي أتذكر سبب ذهابي للميدان، واهٍ .. لو تذكرت، فسأظل ألعن هذا الشئ حتى بعد موتي الذي أراه يقف على بعد خطوتين مني.

أخرج صوتا من سقف حنكه، ثم قال ساخرا:

- تحب أفكرك.

توهجت يده في الغرفة شبه المظلمة بضوء هاتفه المحمول، فسمعتها تقول بصوت أنثوي ناعم:

- لازم أقابلك، فلدي سر يجب أن أخبرك به ... وسكت الصوت.

قلت قاطعا صمتا ثقيلا ساد لثوانٍ:

- تذكرت هذه ...

قفز نحوي كثور هائج، وأخذ يصفعني ويصفعني وهو يصرخ :

- اسكت يا كلب

حتى سال الدم من فمي، وأصابع من يمسكان بي تنغرس في عضل ذراعي.

ثم قال في تحدٍ، وهو يضغط على أسنانه بقوة، وقد أمسك أحدهم بشعر مؤخرة رأسي ليرفع وجهي في مقابل وجهه، حتى شعرت بأنفاسه الحارة المتلاحقة وهي تتصاعد فتلفح وجهي الذي صار منتفخا كالبالون:

- إياك أن تنطق باسمها أمامي..إنها زوجتي يا حيوان.

- لم أكن أعرف..أكمل التسجيل وستعرف أننا أصدقاء فقط على الفيس بوك..هكذا قلت، وأنا أنتحب بمرارة ، واللعاب يسير من فمي مختلطا بدمي.

قال بغضب وألم:

- أصدقاء..لذا تنتظركَ في الميدان بباقة ورد حمراء.

وصفعني.. ثم تركوني أسقط، وأخذوا يركلونني بأحذيتهم حتى فقدت الوعي...

أفقت قبيل الفجر على الطريق الدائري والأمطار المتساقطة بغزارة تضرب جسدي العاري كما تضرب الآن زجاج شرفتي.

لغة الدمع

لم يعد يملك من حياته إلا تلك الذكرى الراسية في خياله كالجبال، فما يمكث داخلنا إلا أكثر لحظاتنا فرحا وأقساها حزنا، وتلك الذكرى تجمع اللحظتين معا فكان عذابه مضاعفا، وقلبه ينقبض وكأنه اسفنجة تعتصرها قبضة حديدية، فتلك الكلمة التي كان يهمس بها بينه وبين نفسه وأفلتت رغما عنه فلامست سمعها، فتبادلا النظر صامتين طيلة دقيقة، وآيات سعادة مفاجئة تتلألأ في عينيها السوداوين كالنجوم، وتسري إلي جميع أعضائها ممزوجة بإحساس من الخجل ترافقه عذوبة رقيقة كأوراق الياسمين فتجعلها لا ترغب في شئ من هذا العالم أكثر من ذلك، ونظراته الملتهبة الثابتة على وجهها جعلته يشتعل احمرارا وكأنه جمر.

قالها وشعر برجفة عنيفة تتغلغل في أوصاله وكأنه يقف أمام قاض كلماته ستحدد مصيره، فقد روعته تلك الكلمة التي هربت من بين شفتيه فضم أصابعه الى راحة يديه، وأخذ يضرب فخذيه ضربات خفيفة متلاحقة وقد قَطَبَ جَبِينَهُ حتى تلاصق حاجباه، فبدت خطوط رفيعة في وجنتيه وكأنها تجاعيد، وهو حريص على الصمت فأي كلمة سيتلفظ بها ستتلوى بين شفتيه من الألم، وتحول وجهه شيئا فشيئا للون الأصفر وكأنه يوشك على الاحتضار.

وصار بإمكانها قراءة ذلك العذاب في عينيه فتلك الكلمة المفاجئة التي كان يحتفظ بها أسفل الجحيم المتقد في أعماقه قد زلزلت قلبه وأخرجت أثقاله وتحدثت بأسراره، فراح يتأملها وهو يحترق شوقا لحركة من شفتيها تكسر ذلك الصمت الذي كلما طال كان سكينا يقطع كل ما بينهما، وهي جامدة كالصخر، وقد تبدل وجهها كسماء الخريف الصافية التي سرعان ما تكتسي بسحب غليظة لا تمطر، فكلمته المفاجئة التي أنبتت آيات السعادة كان حصادها هذا الحزن الذي يكاد ينطق ألما في وجهها، ما جعلها فريسة سهلة لارتباك واضطراب شديدين أجبرا لسانها على الخرس.. ويا لغرابة الحياة فالكلمة التي تمنحنا السعادة هي مصدر شقائنا، فانخرطت في بكاء مر أليم وهي تخفي وجهها بين يديها...

يتذكر.. وفي كل مرة يحاول تفسير دموعها بالكلمات، يجد نفسه يجهل لغة الدمع ويتمنى لو يعود إلى ما وراء تلك اللحظة التي لامست فيها سمعها كلمة أحبك.

اسمها زينب

ها أنا أعترف أني فشلت تماما في تجاوز تلك اللحظة وتركها تذوب في الأيام، فالرعشات الباردة تسري في جسدي، وقطرات العرق المتتابعة تنزلق على ظهري خوفا أن تذوب كالملح فيصير عمري ملحا أجاجا، وكما تمنيت لو تذوب كما السكر فهي أحلى ما في أيامي

. فأنا لم أعرف شيئا مثل هذا من قبل ولا من بعد، حتى ظننت أني ربما كنت أحلم أو ربما تجاوزت حالات الوعي الإنساني الثلاثة* نحو عالم آخر، فعندما ربَّتَ بالقلم الرصاص على كتفي الأيمن مَسَّتني بعصا سحرية كانت في ذلك التابوت الذي حملته الملائكة، فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

فقد كانت تجلس خلفي في الامتحانات وعندما التفت إليها بزاوية ١٨٠ درجة، رأيت وجهها كما الشمس في صباح ليلة القدر، وعلى شفتيها تسكن ابتسامة طازجة لها طعم الفرح في عيون الأطفال..بريئة كقطرات الندى المتساقطة على زهرة قرمزية نشوانة تكفي وحدها أن تكون لوحة فنية أو مقطوعة موسيقية.. فنظرت أمامي سكرانا لدرجة أني تركت ورقة امتحان "تاريخ الأدب الحديث" خالية من أي كلمة

كأنها صحراء جرداء، وكان ذلك هو الصفر الأول الذي حصلت عليه في حياتي آملا الحصول على العلامة الكاملة معها، فتلك اللحظة كانت بداية تاريخي وما قبلها سنوات فارغة من الأيام، ولكني حصلت على صفر آخر، فاليوم كان الأخير في الامتحانات، وكل ما استطعت معرفته من ترتيب أرقام الجلوس أن اسمها "زينب ...".

وكان عليّ عبور الصيف وأنا أتقطر شوقا، ماشيا على جمر حافي القدمين لأراها مرة ثانية، مغلفا آلامي وأنّاتي بالكتمان.. فأنا الراسب في الامتحان بسبب ابتسامة من امرأة كنت استحضرها داخلي ثم أغلق رموشي عليها برفق كأني أضع صغيري في المهد، بعدما قضيت الترم الأول أبحث عنها، حتى تعثرت بها عيناي في أواخر ديسمبر، فاتجهت نحوها وقلبي وقد سقط في أحشائي ودقاته كقرع الطبول الأفريقية وعيناي معلقتان بها كتائه معلق بالنجم القطبي، إذا فقده فقد بوصلة النجاة من التيه والأحزان، ولكن عندما لمحتني حاولت الضياع بين موجات الزحام المتقطعة للطلبة في طرقات الكلية، ثم دلفت إلى قاعة فدخلت دون ملاحظة أن هناك لوحة من الورق المقوى معلقة على بابها تُعلن للمارة أنه تتم مناقشة رسالة دكتوراة داخل القاعة..لم يعلق في ذاكرتي أي كلمة منها ، فطوال ثلاث ساعات كنت غائبا عن الوجود حاضرا معها ، وعندما خرجنا حاولت الاختباء، ولكن لم تجد ما يمكن أن تختبئ..
وراءه غير ظلها وظلي.. فناديت: زينب

- قالت: أنا لستُ هي

زينة تكره الشتاء

كان نهارا حزينا غائما حتى بكت السماء مساءً، والبكاء يطهر النفس ويجعلها صافية كما السماء الآن بعد هطول المطر، فعندما تأملتها كانت النجوم تتلألأ في وجه الليل، وفي برك المياه الصغيرة على جانبي الطريق، وبمجرد أن خطى حذائي الغارق في الماء، سلم المنزل الغارق في الأحزان، اختفت النجوم وراء الغيم الذي لا يغادر إلا ببكاء السماء، فساد الظلام وأنا أمسك بمقبض الباب لأفتحه، فأصدر صريرا كئيبا، وقابلتني رائحة الهواء العطنة، فمددت ذراعي لمفتاح الكهرباء ، وتراجعت خطوة للخلف، ووقفت أحدق في الضوء الواهن القادم من الداخل الذي يتلاشى في الظلام عند عتبة الباب، فلم يكن هناك غير مصباح قديم يتدلى من السقف فوق طاولة وكرسيين لم يجلس إليهم أحد منذ سنين مضت، في منتصفها إطار يحمل صورة لها، تاهت ملامحها في الأيام، ولكني استرجعتها من الذاكرة، فعاد لها جمالها الذي أخذني لماض يملأ الحاضر.

فتذكرت السؤال الذي كان جواز مروري إلى مدينتها، وكأننا نعيش ملهاة إغريقية لا تنتهي، فقد سألتني بكل تعالٍ وتكبر وكأنها تثق في إخفاقي:

- هل تعرف القائل: "يبدأ التاريخ بمهزلة وينتهي بمأساة"

أثار سؤالها غضب أبي وأمي فنظرا نحوي باندهاش، وضجر أبيها وأمها فنظرا نحوها بضيق ونفور، فقد آتينا في تلك الليلة لطلب يدها بالطريقة التقليدية التي تبغضها.

وأجبت سؤالها، وعلى وجهي ابتسامة خفيفة:

- كارل ماركس

فرفعت حاجبيها، ونغضت إليِّ رأسها وقالت:

- أتعرفه

- أعرفه كما أعرف يهوذا، وأبولهب، وهتلر.

استفزها ردي بشدة، وهذا ما كنت أبغيه.. فقالت مزمجرة:

- ماذا ...؟!

لم أترك لها فرصة لتتحدث، ولا أعرف لما باغتها قائلا :

- هل تحبين الشتاء؟

- أكرهه..وأكرهـ....

وقبل أن تكمل قلت:

- ما رأيك لو تقابلنا لنناقش حبك لماركس، وكرهك للشتاء...

أوجد طلبي لقاءً معها لحظات صمت ثقيلة، وكأننا نحضر عرضا في مسرح العبث لـ" بكيت" أو " كامو"، فتطلع أبواها نحوي بفرح مستتر، بينما نظر أبواي إليِّ باستغراب ظاهر.

وكانت لحظات الصمت تلك هي بداية حياتي معها.

وابتسمتُ وسقطت من عيني دمعة تدحرجت على خدي وكأنها حجر ثقيل، فجلست على الكرسي.. وظلها ينبت في الضوء المكفهر، واحتضنت يداي الصورة...ثم قهقهت كمجنون... ففي نهار شتوي مثل هذا النهار الحزين الغائم أدركت كرهها الفطري للشتاء.. فقد كنا نحاول تجنب الحشود التي احتلت الميدان وداعبتها قائلا :

- زينة .. ما رأيك لو انضممت إليهم؟!

التفت نحوي وهي تبتسم قائلة:

- سأصنع "كوكتيل" غريبا.. اشتراكية تقدمية مع إسلاميين.

ثم سقطت فجأة أمامي.. ولم أدر شيئا مما جرى..إلا وأنا في عربة الترحيلات..فقد تحولت الحياة إلى موت، صراخ، عويل، رصاص، ودخان، وعمر ضاع في صحبة سجان.. كان يسأل كلما رحل صيف لماذا تكره الشتاء ؟!

وكنت أجيب بقول صلاح عبدالصبور:

ينبئني شتاء هذا العام

أنني أموت وحدي

ذاتَ شتاء مثله، ذات شتاء

وأن أعوامي التي مضت كانت هباء

جنون

كان يقطع الغرفة ذهابا وعودة وهو يرتشف جرعات صغيرة من فنجال القهوة الذي أعدته ابنته، ويشعر أن جرحه الذي تكفلت بمداواته السنون قد ترك ندبات غير مرئية داخله تصب في روحه مادة كاوية، ولن تتوقف طالما كان عاجزا عن النسيان، والغريب أن ذلك كان يُشعره براحة لذيذة وسط الآلام، فكان كمن يرى نقطة ضوء بعيدة وسط الظلام، فيملؤه حنين رقيق لعمره الذي تركه وراء الأيام، وأعاده سؤال ابنته على مائدة العشاء:

- بابا أنت تعرف الأستاذة سمر فؤاد؟!

هكذا سألته، وهي تميل بخفة رأسها جهة اليمين وتغمز بعينها اليسرى، ووجهها تكسوه بسمة صافية بريئة.

بدى وكأنه يحاول تذكر شئ لم ينسه قط، ثم أجاب سؤالها بسؤال قائلا في لامبالاة :

- وأين تعرفتِ عليها ؟

قالت وهي تمضغ ما بفمها من طعام بسرعة ثم تبتلعه وتأخذ شهيقا:

- مدرسة علم النفس.

توقف عن تناول الطعام، ونظر نحو زوجته، وقال وهو يحاول إخفاء ما اعتراه من اضطراب وراء فتور زائف:

- كانت زميلتي في الثانوي.

تحول جسد زوجته كله لأُذن صاغية حتى تلقت إجابته، وفكرت لأقل من دقيقة وهي تحدق في الطعام، وقالت بمكر وسخرية:

- آه زميلته في ثانوي..

ثم أشارت إلى ابنتهما، وأكملت:

- لذلك منحكِ اسمها.

أثارت ملاحظة الأم القوية السريعة زوبعة من الأفكار داخل الابنة، فأخذت تسترجع تلك الدقائق التي مازالت طازجة في مخيلتها حين سألتها المُدرسة عن اسمها، فتحول وجه سمر الكبيرة الصافي الهادئ فجأة إلى سماء الخريف المتقلبة، فغاب ضوءه وراء سحب قاتمة لا تمطر، وتحول لونه الأبيض كالثلج إلى لون الأقحوان، وتوهج في عينيها السوداوين الواسعتين ضوء براق لنجم لا يسطع إلا كل مائة عام، ثم راوغت وراحت تنظر نحو زميلاتها في الفصل وهي تتأملها بأطراف بصرها، لتخفي دهشتها الممزوجة بسعادة غمرت روحها العطشى إليه عند سماع ابنته تذكر اسمها مقترنا باسمه، فأغمضت عينيها ووضعت يدها على صدرها لتتأكد أن قلبها الذي عاد ينبض من جديد بدقات قديمة قد نسيت تماما إيقاعها مازال مكانه لم يطر من هذا الفرح الطارئ، ثم قالت بصوت بارد في ظاهره، مملوء بتباريح الشوق في باطنه:

- سلمي على بابا.

أما هو فقد ألقت ملاحظة زوجته حجرا بحجم جبل في بركة أيامه الراكدة، فصنعت دوائر متتابعة مركزها مائدة الطعام، ولكنها آخذة في الاتساع إلى مدى لا يعلمه إلا الله.

فأغمض عينيه، وأخذ نفسا عميقا وكأنما يستعد لإلقاء نفسه في بحر وهو لا يجيد السباحة، وقال بهدوء وعيناه معلقتان بابنته:

- إنها حكاية من الماضي.

قالت زوجته في تحدٍ، والغيظ منح صوتها قوة لم تتوقعها:

- ولكنك أردت أن تستمر معك في الحاضر والمستقبل.

تناول شربة ماء ليبتلع بها تلك الكلمات حتى سيظل محافظا على هدوءه أمام ابنته، وقال بحب مصطنع:

- الحاضر والمستقبل لك وحدك.. أما الماضي فهو يخصني وحدي.

- ولكن ماضيك يلاحقني أنا وابنتك.

- تتحدثين وكأني كنت مجرما.

- ليس هناك جريمة أكبر من أن يرتبط رجل بامرأة بينما قلبه مسكون بامرأة أخرى.

حاول أن يرسم ابتسامة على وجهه، قائلا وقد فقد بعضا من هدوءه:

- ولكنها أخلت السُكنى منذ التقينا.

قالت في حزن وحسرة وهي تشير إلى ابنتها :

- لا..

فقد ما تبقى لديه من هدوء، وأشعل الغضب وجهه إحمرارا، وقال بعصبية وهو يضرب المائدة بكل ما أوتي من قوة حتى وقعت أكواب المياه وبعض الأطباق وتحطمت على الأرض:

- هذا جنون.

دلفت الابنة مسرعة إلى المطبخ لتعد له فنجال قهوة.

وأصدرت الأم ضحكة صامتة طويلة، تحولت رويدا إلى ابتسامة ساخرة، وقالت بصوت تخنقه الدموع التي تبلل عينيها وهي تجاهد لتمنعها من السقوط على وجنتيها:

- ومن فينا المجنون؟!

شئ ما يبقى

استيقظت وكأن ما حدث أمس قد حدث من زمن بعيد جدا، وأهالت عليه ذاكرتي التراب منذ دهر، وكنت ألتقط أنفاسي بصعوبة وكأني أتنفس من سَمِّ الْخِيَاطِ والسأم يملأ قلبي، وأفكار مزعجة تتأرجح برأسي كبندول الساعة، فقد ومض ما حدث أمس في ذهني كالبرق ميقظا قلق واضطراب الأمس، فها هما يتدفقان من أعماقي نحو السطح باحثين عن مخرج عبر تلك الدموع المصلوبة في عيني فلا هي جفت، ولا هي سقطت، فداخلي شئ ما كنت أجهل كنهه يفيض بألم لا ينضب، أدركت أمس فقط أنه الشوق والحنين في تلك اللحظة التي رأيتها فيها، حيث توالد ذلك الارتباك الذي يجعل من كل سنوات البعد آيلة للسقوط، حتى وإن سقطت سيبقى حطامها حاجزا بيننا، فقد خفضت رأسي في حزن بارد لأنني لن أجد مبررا لهذا الاهتمام الذي يملأ نظراتي لها، لو سألني ذلك الممسك بيدها وبيده الأخرى يحمل طفلا صغيرا، فظللت مُسمرا مكاني وظلال الناس تزداد حولي حتى أغرقتني، ووجدتني بشكل آلي أمامها في عربة المترو وأنا لم أكن قد استجمعت أفكاري التي لازالت تزعجني، فحاولت بكل قواي مقاومة ضعفي لأقتصد في النظر إليها، فنصف ابتسامة شاحبة تحاول جاهدة الوصول إلى شفتيها، وعيناها السوداوان قد بهت لونهما، ووجهها كان فارغا من أي شئ حتى لم يعد بوسعي أن أراها وصورتها

تنعكس في عيني، فنظراتها البليدة الباردة تنكر كل شئ حتى ظلي المنعكس إلى جوارها، فقد كنت أمام تمثال.. أشعر بأنفاسه الحارة تلفح وجهي وكأنها تتصاعد من مرجل يغلى فبعضها كان نارا، وبعضها كان ثلجا.

فأسفت من أجلها ودعوت الله أن يمحو كل صدفة سوف تجمع بيننا مسطورة عنده أم الكتاب، فهي لا تذكرني إلا حين تنساني، وستبقى داخلي شيئا ما مستترا يرفض أن يتلاشى سوف يظل سبب عذابي وشقائي،

فقلت في نفسي يجب أن أنزل في المحطة المقبلة حتى لا أعرف وجهتها، وعندما هممت بالنزول متخذا أولى خطواتي نحو النسيان سمعت اسمي، فالتفت فإذا بها تنادي طفلها الصغير.

سؤال

التفت نحوي وقالت:

- من الغريب أنك لم تحب حتى الآن، فالمرء عندما يصل الأربعين لابد أنه قد أحب ولو مرة واحدة على الأقل؟!

- أراقب امرأة منذ كنت في الثانية العشرين من عمري، وإن كنتِ تعتبرين تلك المراقبة حبا، فقد أحببت.

استدارت بكرسي مكتبها نحوي بزواية ١٨٠ درجة، فاغرة فاها، وحدقت فيِّ، وبؤبؤ عينيها جامد لا يتحرك، وحاجباها صارا في منتصف جبينها، ثم قالت شاهقة :

- حقا

- أراقب حتى حركة نهديها الصغيرين على ايقاع تنفسها.

تحسست بشكل لا إرادي نهديها الصغيرين كثمرتين توقفتا عن النمو أسفل بلوزتها الشيفون الزرقاء، وهي شاردة الذهن، وصمتها يخترق حاجز الصوت مدويا في أذني، وأطرقت برأسها محاولة جمع شتات أفكارها التي بعثرتها كلماتي، بينما أكملت وأنا واجم قانط:

- لقد مرت السنون وأنا أراقبها مختبئا وراء خوفي الذي يحجبها عني وهي إلى جواري، فقد كنت أحتاج جسرا لأعبر إليها، حتى لا يُغرقني الخوف في اللامسافة الفاصلة بيننا...

وفي لمح البصر أصابتني رعشة مفاجئة، واشتعل وجهي احمرارا، وتقاطرت حبات العرق على جبيني.

فعادت من شرودها، وتأملتني بنظرات تمتزج فيها الدهشة والاستنكار، والحزن والعطف، وقالت:

- أنت محموم ولابد أنك تهذي.

ولكن شذى عطرها جعل حواسي المرتعشة تنتعش، وفتح بابا لاحتمالات لا حصرها، فكل شئ ممكن الآن، والكلمات التي وددت أن أخبرها بها قد تخرج من شرنقة الصمت، وتغادر حلقي العالقة به طيلة ثمانية عشرة عاما، لتعبر بي ذلك الجسر الذي أقامه سؤالها.

فقلت وأنا أستجمع قواي، مبتلعا لعابيِّ كحجر ينزلق عبر المرئ ليسقط في معدتي، حتى تخرج نبرة صوتي بشكل طبيعي:

سألتِ.. والإجابة أنت.

ابتسمتْ ابتسامة فارغة من أي معنى، وكأنها تعبير عن انطباع مبهم تجاه شخص لا تعرفه، جعل عواطفها الخاملة مرتبكة مضطربة، حتى أكاد أسمع ضربات قلبها، ثم تأملت أظافرها الطويلة المطلية باللون الأحمر الخمري لأكثر من دقيقة، وأكملت الدائرة بإضافة ١٨٠ درجة، فعادت لمكانها، وأصبح ظلانا المتواجهين متوازيين، متجاهلة تلك الدراما التي أنتجها سؤالها، ففي التجاهل يبدو كل شئ كأنه لا شئ.

فأدركت أني عبرت الجسر لأنتقل من صمت إلى صمت يطرح سؤالا غير مرئي حول الحقائق التي يحرم التصريح بها، أو حتى التفكير فيها لتبقى في قبضة التعاسة والكتمان.

شات

عندما رأيتها لم أكن متأكدا من أنها هي، فملامحها مختلفة في الواقع عن صورتها على الفيس بوك، فقد كانت مضطربة شديدة الاهتياج، ووجهها ملتهب وكأن نيران الجحيم قد لفحته، وفي خدها الأيسر حركة عصبية تجذبه آليا لأعلى، فترمش عينها بشكل متلاحق، وجسدها كله يرتجف، وكأنها توشك أن تصاب بنوبة صرع.
وإذ بها.. وأنا أتأملها حتى تتطابق الصورتان.. الافتراضية المشوشة تماما، والواقعية المتداخلة الملامح والألوان، تحتضنني بقوة كغريق أمسك بلوح خشبي وسط بحر هائج، وأنا متجمد في مكاني كلوح من الثلج لا الخشب، أراقب نظرات الناس الذين قد جذب أعينهم المشهد فتعلقت بنا، حتى أن بعضهم التقطت بهاتفه المحمول صورا لذلك المشهد الرومانسي، بينما دموعها الساخنة التي أشعر بها تنهمر على عنقي، جعلته مشهدا دراميا، فسواء كنت من الخشب أو الثلج فإن لي قلبا دافئا ينبض بحبها.
ولا أدري كم من الوقت قد مر والنار تحتضن الثلج، حتى هدأت وعادت ملامحها تقترب من صورتها المرسومة في ذهني، ثم مرت دقائق ثقيلة ونحن نتقاسم الصمت، الذي قطعه صوته المرتجف وكأنها تجريه بين شفتيها للمرة الأولى، قائلة

وسحب الحزن تكسو صفحة وجهها، رغم الدموع الغزيرة التي هطلت من عينيها حتى بللت ياقة قميصي:
- لو لم أجدك كما اتفقنا لألقيت نفسي أمام المترو.
فأدركت لماذا احتضنتني بهذا الشكل، وقلت بهدوء وكأني أدعم فكرتها، أو لا أبالي بها:
- إن حياتنا شئ يستحق الرثاء، ولكننا لا نستحق أن ندخل الجحيم مرتين.
نظرت نحوي بغرابة، وكأنها لم تكن تتوقع كلماتي، فأردفت محاولا استدراك الموقف:
- والمرأة الجميلة لا تتحدث بالحماقات.
أغمضت عينيها، وهزت رأسها هزة خفيفة يمينا ويسارا في يأس، فأدركت أن من يتحدث بالحماقات هو أنا.
وفجأة ضحكنا بشكل هستيري، لو أن أحدا مما رأى مشهد احتضانها لي مازال على الرصيف لأعتقد أننا مجنونان.
ثم نظرت نحو عينيها المنداتين بالدمع، فإذ ببعض الفرح الباهت يلمع بهما من بعيد وسط اللونين الأسود والبنفسجي القاتم المحيطين بجفنيها، وكأن قبضة حديدية قد ضربتها.
أدركت أني لاحظتُ تلك السحابة القاتمة أسفل عينيها الممطرتين، فحاولت الاختباء خلف ابتسامة بلا معنى، ثم قالت ومازالت تلك الابتسامة عالقة بشفتيها:
- أنت من فعل بي هذا.
انتفضت كمن لدغته أفعى، بينما تابعت وهي تحاول الحفاظ على ما تبقى لديها من هدوء:
- المتسبب في الجريمة شريك فيها...فقد حدث كل شئ وأنا نائمة، تصفح محادثاتي معكَ على الشات، فثار كثور هائج، وصفعني فاستيقظت مفزعة كأني في كابوس مرعب يمر وراء عيني، وعندما رفعتُ رأسي من على الوسادة، ألقى هاتفي بقوة، ولكمني ولكمني ، حتى سقطت على الأرض، فأخذ يركلني بقدميه، وأنا متكورة حول نفسي محاولة الاستيقاظ من هذا الكابوس، ولكني كنتُ مستيقظة بالفعل....
لم أعد أسمعها، بل كنت أحدق فيها بنظرات خرساء، وبداخلي عداء بارد قاسٍ يتفجر تجاهه، مفكراً أنه لابد أن يكون قد تبعها إلى هنا، والتقطت صورا لذلكَ المشهد وهي تحتضنني، والذي أصبح الآن مأساة إنسانية من مشهد واحد فقط.
وقبل أن يغلق باب عربة المترو خطفتها من يديها إلى داخل العربة، هربا من عيون مختبئة في الواقع تترصدنا.

وكأني أعرفها

عندما رأيتها في بداية الخريف الماضي أيقنت أننا التقينا في يوم ما من أيام حياتي المتساقطة كأوراق الخريف، ولكن الذاكرة لا تحتفظ بشئ، فالنسيان ُيفرغها من الأمس بشكل آلي، حتى أني أتخيل لو حدث وتذكرت شيئا سيسيل من ذاكرتي ماءً عكرا، لذا أيقنت أيضا أني لم ألتق بها، فهي ماء غير آسن لم يجر في بركة حياتي الراكدة التي ألقت فيها رؤيتها حجرا.

رغم أني لم أر فيها جمالا أخاذا، فقامتها رشيقة تميل للطول، وعيناها السوداوان تلمعان كالنجوم البعيدة من وراء نظارتها في صفحة بشرتها البيضاء، ولكنهما صافيتان، ذات نظرة واهنة عذبة، وجهها المستطيل يمنحها ملامح حادة فوجنتاها منبسطتان غير بارزتين، وأنف ضيق طويل، وذقنها مسحوبة قليلا للأمام، ولكن تلك الملامح تحمل من البراءة ما يجعل وجهها يضئ بنور الطفولة الذي يجذب عينيك تلقائيا لكل طفل تراه، فنظرت نحوها نظرات طوال ملحة عسى أن ُتذكرني بنفسها، ولكن تلك الابتسامة الحائرة التي تتردد على شفتيها استوقفتني في منتصف المسافة بين التقينا ولم نلتق.

ثم بدا في وجهها الذي صبغته نظراتي بلون الأقحوان الضيق والضجر، ورمتني بنظرة فارغة من أي معنى اخترقتني كأسنة الرماح، فارتبكت كمن تعثر بحجر، واتقد وجهي كجمرة، وأجفلت ولكن عندما ارتدَّ إلى طرفي أرسلتْ عيناي إليها بشكل لا إرادي نظرات متتابعة كقطرات المطر، فبصري قد التصق بها بإلحاح من إحساس يسري داخلي بحنين ناعم يجذبني نحوها كقطعة من الخردة أمام مغناطيس عملاق.

فاستقرت ابتسامتها الحائرة على شفتيها، ولكنها كانت تبتسم لنفسها ليس ليِّ، وألقت عليَّ نظرة فاحصة غريبة وكأنها تلومني على شئ ما أجهله، وارتسمت في وجهها أمارات الألم، فإذ بحزن كاوٍ ينتشر من أعماقي حتى أناملي فقد أحسست أن شيئا أعشقه، وأهيم به، سقط في بركة أيامي الراكدة.

حياتي ككلب

عندما ينظر كل منا للخلف يجد أحزانا تبلله بالدمع، وإذا ما حولت ناظري للخلف فسرعان ما يتقد وجهي احمرارا خجلا من نفسي وأتعرق وتسري داخلي قشعريرة تجعلني أرتجف كالمحموم، فالماضي كفيل وحده بسحق قلبي تحت ثقل الذكريات، ولو كان البحر في عيني لنفد البحر قبل أن ينفد بكائي، فلازالت صورتي معلقة على جدار الذاكرة، وأنا متكور على نفسي في ركن الغرفة وقدماي الحافيتان ترتديان حذاء من الطين، والأسمال البالية التي تغطي جسدي مبللة، وضوء الشمعة في الركن المقابل ليِّ يحاول جاهدا الوصول إليِّ، ففي الليالي الممطرة يقطعون الكهرباء، ولكنها لم تكن تمطر في الخارج فقط، بل تمطر في غرفتنا أيضا، فأحبال المطر الممتدة من السماء للأرض لم يقطعها السقف، وأرضية الغرفة صارت بقعا صغيرة من المياه وسط الوحل، وفي الركن الموازي ليِّ كانت أمي تجلس القرفصاء مهيئة مهدا لأخي الصغير الذي يسعل سعالا جافا يكاد يدمي حنجرتي، وعندما يتوقف سعاله طرفة عين، أسمع أنينه مختلطا بصفير حاد يتصاعد من صدره، وفي الركن الوحيد الفارغ من الغرفة كان يجلس أبي ضاما ركبتيه إلى صدره، مرتكزا بمرفقيه عليهما، واضعا رأسه بين كفيه، ولكنه فجأة هبَّ وافقا صارخا في أمي أن تُسكت ذلك الصغير، وعندما توجه نحوهما طاشت إحدى قدميه في بقعة ماء فأطفأ الرذاذ المتطاير الشمعة.

وفي عالمي الذي صار ظلاما ووحلا سمعت نحيب أمي، وأبي يضربها بكفيه الغليظين الثقيلين كخُفي الجمل أعلى ظهرها بعد أن انحت لتحمي صغيرها، فأخذ

يركلها بقدميه الغاضبتين حتى سكت الصغير للأبد.. وسكت صوت قطرات المطر المتتابعة التي ترتطم بالسقف كأحجار صغيرة متناثرة، وبينما سماء الغرفة الخشبية مازالت تمطر.. خرجت تاركا ركن الغرفة الذي منحه جسدي بعض الدفء للبرد.. وكان الهواء المعبأ بالصقيع في الخارج يحمل رائحة عطن باهتة من المزبلة التي يوجد بها كل شئ.. ملابس بالية كالتي أرتديها، صناديق، كراسي، أبواب، بقايا طعام، حيوانات نافقة، كنا نأكل منها بالنهار، وبالليل تأكل منها الكلاب، التي لم يبق منها سوى كلب كان متكورا على نفسه خارج الغرفة في الركن الذي كنت فيه، وعندما نظر نحوي بعينيه الضيقتين كعملة معدنية صغيرة بهت لونها.. مضى ببطء وكأنه لا يسير، تاركا غرفتنا تتلاشى كسراب وسط أكوام الزبالة، فرفعت عيني نحو السماء وكانت حالكة الظلمة حتى أني رأيت بصعوبة بعض النجوم من بين مَزق السحب الكثيفة المتتابعة كالأمواج، وفي تلك اللحظة جالت في خاطري أفكار شتى غير ناضجة إلا فكرة واحدة أنضجتها الحياة التي جئتها في لحظات كان يبحث فيها جسدان عن اللذة والمتعة في المزبلة التي سأغادرها وأنا أشعر باللذة والمتعة وهم يركلون جسدي بأحذيتهم، وينظرون إليِّ -كما كانوا دائما- بقرف واشمئزاز ونفوسهم مليئة بالكراهية.

أيامي البعيدة

في صباح خريفي والشمس تلفها سحب رمادية رقيقة، والهواء يحمل لسعة ناعمة من البرد تُشعرني بلذة وهي تلامس وجهي، رأيتكِ تغلقين البوابة الحديدية القديمة التي تكسوها طبقة من الدهان الرطب الممزوج بالأتربة، وعندما طرقتها لم يجب أحد، فظللت أطرق وأطرق حتى طُبِعَ كفاي عليها، والتصق بهما الدهان الأسود، فأخذتُ أقلب عينيِّ بين نوافذ المبنى المليئة بالخِرق التي تسد زجاجها المكسور، والشمس قد اختفت وراء السحب التي صارت سوداء قاتمة، وبدأت السماء المكفهرة المتهجمة تمطر،

والأمطار تنكسر على البوابة فتنزلق المياه عكرة متسخة مزيلة آثار يديِّ، وأنا أنتظر في المطر والريح تحمل أوراق الخريف في كل الاتجاهات، كما تحملني إليكِ الذكريات لأعبر تلك البوابة أو البرزخ الذي يفصل بين ماضٍ حي وحاضر ميت.

فما زلت أعيش وراءها أيامي البعيدة الممتدة في الممر المظلم الذي لا يصله ضوء النهار، فعن يساره حائط، وعن يمينه تمتد غرف متتالية كالأيام، في نهايتها كانت غرفتي أو الجُحْر الذي أختبأ فيه، تستبد بي أفكار حادة لم أستطع يوما التحرر منها،

فدائما أفكر أني ولدت مهزوما لا أستطيع الإفلات من الخسارة والخذلان والغرق في تباريح الشوق وتيه الأحزان.

ومعكِ حاولت الهرب، فإذ بكِ تلقيني في مكان ضيق مُقيدا بأصفاد الشوق ونوازع المرض.

فبينما أنا محموم أئن وأهذي رأيتك في ضوء غرفتي الخافت دائما وكأن مساء أبديا قد هبط عليها، فظننتكِ وهما من تهيؤات الحمى، لولا جارتي العجوز التي بدت بشرتها القمحية في الضوء الخافت تميل للسواد، وظل قامتها القصيرة البدينة ينعكس على كل شئ في الغرفة.. على المنضدة والكرسي المتهالكين وخزانة الملابس القديمة، بينما ظلكِ كان إلى جواري على السرير طوال أيام مرضي.

وعندما قاربت على الشفاء رأيت الباب يُفتح بحذر ثم أطل وجهك كما القمر الذي أضاء مرةً مساء غرقتي الأبدي وزال، ثم اقتربتِ بخطوات غير مسموعة، ولما رأيتني بخير تفتح وجهك كوردة ذابلة ناعسة أيقظها ندى الصباح، فعيناك تلمعان فرحا، وخداك صار بلون الأقحوان، وشفتاك تبتسمان في خجل ثم اختفيت.

وعندما سألتُ جارتي عنكِ، قالت إنها كانت تعتني بي أثناء فترة مرضي بمفردها، فوقفت ذاهلا دهشا غير واعٍ لما أسمع، وعاودني السَقُمُ مرة أخرى بلا مغادرة، بينما أنتِ غادرتِ بلا معاودة.

فظنوا أن سبب سَقُم صدري هو جو الغرفة، فنصحوني بالانتقال لمكان آخر، ومن يومها وأنا أقضي ساعات طوال هنا متفحصا كل الوجوه التي تمر بعيني لَعَلِّي أعرفكِ حقيقة لا وهماً يقبع في أيامي البعيدة.

صباح اليوم

هناك شئ ما في حياتي غير قابل للتفسير، يستهلكني كما تستهلك الحياة الأيام ليتلاشى العمر، وذاكرتي المنهكة التائهة مهما حاولت التنقيب فيها عنه لا أجد إلا بقايا صدئة على الشاطئ لا أستطيع إعادة تجميعها لتشكل وجهكِ كاملا، لذا اعذرني إن سألتكِ صباح اليوم أيضا:

هل أعرفكِ ؟!

فعندما التقينا أمس كانت ذاكرتي في عطلة، وأرجو اليوم ألا تُضرب عن العمل فيتكرر الاعتذار والسؤال غدا، ووجهك يصفر ويحمر وعيناك تراوغان وتُعرضين عني مسرعة كأني طفل مزعج يكرر سؤالا مفرطا في الجرأة، فالتفت نحوك مبقياً عيني مفتوحة على اتساعها دون أن أجفل، محاولا متابعتك وأنت تضيعين وسط الضباب الذي يلف كل شئ، فليس أمامي وخلفي سوى ضباب ينتظر أن تبدده الشمس التي تستيقظ متأخرة في الشتاء لتنهي هذا العالم الرمادي وتكشف عنكِ غطاء الذاكرة الضبابي.

فحين رأيتكِ سرى داخلي حنين ناعم لتاريخ ما، لرائحة عطر امرأة تركتها في حاسة الشم ومضت، فعندما توازت خطواتنا ونحن نتجه نحو المصعد، ألقت رائحة

عطرك حجرا في ذكرياتي الراكدة، فالتصقت بجانب المصعد المقابل لكِ فتقاطعت نظراتنا، ولمعت عيناك بضوء خاطف كالبرق، فانتابتني مشاعر متضاربة لم يستطع أحدها الإمساك بي، بل زاد اضطرابها لما طأطأتِ رأسكِ في ارتباك وقد هممت بالنزول قبلي بدور، ولحظتها سألت: هل أعرفك.

وصباح اليوم أمام مبنى العمل المتدثر بالضباب فلا يبدو منه شئ غير ضوء ينعكس من وراء بوابته الزجاجية كما تنعكس صورتكِ المنسية في عيني جاءتني رائحة عطرك مبللة بقطرات من الندى فأرسلت دلوي في غياهب جب النسيان.. وسألت:

هل أعرفك؟!

حبٌ افتراضي

فتحت الشرفة لتبلل يديها بماء المطر، وعيناها تراقبان الريح وهى تعري الأشجار من أوراقها، ولكن لا تأخذها بعيدا -كما تأخذها- لأنها لا تقوى على حمل الأوراق المخضلة بماء المطر بل تبعثرها على أرضية الشارع المرصوفة بالحصى الذي غسلته الأمطار مكونة بركا ضئيلة بين فراغات الحصى سرعان ما تختفي مع أول طلة لشمس الشتاء الواهنة.

وأغمضت عينيها وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة، وبداخلها يسري حنين ناعم له نقاء الدمع وطُهْرَ الحزن، مُحلقةً في الخيال محاولةً استعادة مشهد عاشته من قبل..
فأخذت تبحث عن وجهه في الذاكرة، وكأنها طفلة تبحث عن اللآلئ على شاطئ البحر، ولكنها كانت عاجزة عن الإمساك بأي شئ يمكن أن يحدد ملامحه، التي بدت كغبار أثارته سيارة مسرعة على طريق ترابي، فاعتصرت عينيها وزمت شفتيها لعل ذاكرتها الرمادية المغبرة بالأتربة كطقس الخماسين تكشف عن وجهه.

فكل ما بينهما كان مهلهلا في ذاكرة مكتظة بمشاعر التوجس والقلق والارتباك، فعندما تنظر إليه يتقد وجهه احمرارا، فترتسم على شفتيها ابتسامة متكبرة ساخرة، ووجهها الجليدي لا يترجم أيا من مشاعرها، فلا يستطيع أن يقرأ فيه شيئا، لذا كانت

تنبت داخله رغبة قوية في أن يصفعها، وقطرات من العرق البارد كوجهها تنزلق على جسده الملتهب.

ولكن كبرياءها وسخريتها من خجله الذي يخضب وجهه بالدم عند رؤيتها يذوبان في العالم الافتراضي، فتدخل إلى صفحته على الفيس بوك وهي تعض أناملها غيظا عندما يكتب تعليقا لإحداهن وحتى يقوم بعمل "لايك"، وها هي ترى نفسها بين كلماته في بوست نشره منذ دقيقة واحدة يقول فيه :

أحقيقةٌ أنتِ أم خيالْ

فكم حلمتُ بلقياكِ ليالٍ طوالْ

وعيناكِ قمرٌ أرحلُ في ضوئهِ

ولا يوماً أحطُ الرحالْ

وكلما أرحلُ تقولين: تعالْ

فلا أعرفُ في هواكِ متى أحطُ الرحالْ

متى تَرويني شفتاكِ فأذوقَ طعمَ الوصالْ

أعادت القراءة مرارا داهشة ذاهلة فهذا الخجل الشديد الذي يتسم به لدرجة المرض لا يُشفى منه إلا في العالم الافتراضي، وفي تلك النظرة الولهى التي تفرج عنها عيناه حين يلتقيان في اللامسافة الفاصلة بينهما، حيث كانا يجلسان متواجهين على نفس المكتب ليس بينهما إلا لوح من زجاج وكبرياء وخجل وصمت، وظلهما متعانقان على اللوح الزجاجيْ.

وفجأة انقطاع المطر فانقطعت ذكرياتها، وأشرقت الشمس حمراء واهنة وراء الأشجار العارية فأغلقت شرفتها التي تطل منها عليه.

لا شئ من أجلها

في أحد صباحات شهر ديسمبر كان الضباب الكثيف يحجب الشمس فلا تستطيع أشعتها أن تنفذ من طبقاته المتراكمة لتشرق الأرض بالنور، فلا أكاد أرى أبعد من موضع قدمي، فهممت بالعودة فما كان لي هدف من الإتيان في الضباب والبرد إلا زيارة الشارع المؤدي إلى محطة القطار، فمنذ أن أصدر الخوف قرارا بنفيي عن الوطن قبل ما يربو على ثلاث سنوات ولم تطأه عيناي التي تتفحصه رغم الضباب الذي تتشكل فيه صورتها، وهأنذا عدت.. ليس للوطن بل للخوف، فمنذ أن قبلت أرض المطار، وبداخلي إحساس أعجز تماما عن احتماله فكل شئ في الوطن يبدو كفزاعة العصافير في الحقل، والذكريات تتابع في رأسي كقطرات الماء المتساقطة من صنبور بشكل متقطع محدثة صوتا مزعجا جدا يصل لحد العذاب كلما طفت ذكراها من أعماقي نحو السطح، فيصير وجهي شاحبا وتتجمد أطرافي كأني جثة، وترتعش شفتاي، وتنزلق حبات العرق من رأسي على جبهتي، وأغمض عيني التي تتجول في الماضي بقوة محاولا إطفاء تلك الذكريات، وأركض قاطعا الشارع هلعا كما فعلت في ذلك اليوم.. فعلى غير عادتنا تأخر تقاطع خطواتي وخطواتها في نهاية الشارع من ناحية محطة القطار، حيث كان يمتزج ظلي وظلها فيصيران ظلا واحدا لطرفة عين، ثم يلتفت كل منا وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة طازجة كندى

الصباح، وفي عينيه فرح طفولي عذب، تحول في غيابها إلى ومضات من نفد الصبر تبرق في عيني، وقد أظلم وجهي وانكمشت أساريره كإسفنجة بفعل التوتر والارتباك، فأنا أقف وحيدا وسط رؤوس حليقة، ذات وجوه قاسية الملامح، تُصدر أعينها شررا من لهب، وعلى شفاهها ابتسامة كريهة وكأنها قادمة من الجحيم، والأجساد الضخمة التي تحمل تلك الرؤوس تكاد تغرقني وتبث في نفسي اضطرابا، وصوت التصفيق ثلاثا متبوعا بصرخة "حرية " يتنامى إلى مسامعي قادما من تلك الصفوف المنتظمة المتتابعة كالموج في بحر الطريق، وكلما اقتربت تحول اضطرابي إلى خوف فرعب.. وأنا أراها تلوح لي من على جانب الطريق، وظلي تدوسه الأجساد الضخمة التي بدأت الانقضاض على الصفوف ضربا بعِصِيّ مطاطية سوداء... فماجت الصفوف كالأمواج المتلاطمة، وتقهقروا في محاولة للفرار في الشوارع الجانبية، ولكن هيهات فقد فتحت يأجوج ومأجوج عليهم من حدب، فرأيتها تسقط على مقربة مني ولم يشفع لها السقوط في تفادي الركل من ستة أقدام تحلقت حولها، ظلت تركل وتركل حتى تعبت الأحذية، ثم جروها إلى مدخل أحد العمارات، فركضت كما أركض الآن، وأنا لا أبصر إلا وجهها الذي صار أزرق قاتما بلا أي ملامح وكأنه علبة من الصفيح تم سحقها بمطرقة عملاقة، وأنا لا أسمع إلا صرخاتها تدوي في أذني كأنما قد نُفخ في الصور حتى أكاد أصعق من شدة الهول فلا شئ من أجلها فعلت.

رائحة القهوة

فتحت نافذة مكتبها لعلها تراه قادما، فرأت الشمس تصعد بطيئة من بين العمارات المرتفعة المتدثرة بضباب كثيف يحجب الرؤية كما تحجب الأيام البعيدة وجهه، الذي تراه قادما في ذاكرتها.. فترتبك وتعبث بأصابعها وجهها يصير بلون الأقحوان، وهي تراوغ بعينها، التي التقطت له صورة خاطفة، في أول يوم عمل لها، ببشرته البيضاء، وقوامه الطويل، ضيق الخصر، متسع الصدر، وبداخلها إحساس يلح عليها أنها رأته من قبل.. ولكن أين ربما في الأحلام ؟

ويزداد ارتباكها.. ورأسها تتضارب فيها الأفكار محاولة البحث عن رابط للتعارف، فتفاجئها تلك الرائحة المنبعثة من فنجان القهوة الذي يحتضنه بين أصابعه خوفا على " وش القهوة" من أن يتلاشى في الفنجان.

- رائحة القهوة جميلة جدا. هكذا قالت، وهي تجفل آخذة شهيقا في نشوة ولذة، وابتسامة رقيقة تزهر على شفتيها.

قال وهو يبتسم:

- أنتِ تحبين القهوة.. تفضلي ولو تحبينها سادة.

- أنا عمري ما شربت قهوة، ولكن أحب رائحتها جدا.

- عن نفسي القهوة محبوبتي الوحيدة.. وكلما أشرب فنجالا أمر عليكِ، أنتِ تشمين الرائحة وأنا أشرب والحساب بالنصف.

قالت في نفسها، وابتسامتها تكبر فتنساب على شفتيها ضحكةً رقراقةً عذبةً :

- يا لرائحة القهوة التي أذابت الجليد.

ومن ذلك اليوم صارت دائما تنتظر رائحة قهوته، حتى اختلط الاثنان فلم تعد تعرف من تنتظر...رائحة قهوته أم تنتظره هو؟

فعندما تراه قادما نحوها ممسكا بالفنجال الذي يعد بنفسه في "البوفيه" تشعر بإحساس لذيذ تكون دائما راغبة في الاستزادة منه.. إحساس ينساب داخلها كموج البحر، فيجعلها صافية نقية كسماء في صباح شتوي قد اغتسلت بالأمطار المشجية، فبدت زرقاء صافية، وأطلت شمسها لتغسل أشعتها في أبخرة المطر المتصاعدة.

أعادها الضجيج خارج مكتبها من الماضي وهي تستحضر ذلك الإحساس.. فأغلقت نافذتها والشمس عاجزة على أن تبدد طبقات الضباب الكثيفة التي تلف الأفق، وفتحت باب المكتب وعلامات الضجر والضيق تكسو وجهها.. من أنه لن يأتي للعمل اليوم أيضا، ولن يأتي أبدا فقد غاب بين الأمواج العاتية لذاكرة الأيام حيث ينتهي به الأمر إلى قاع النسيان، إلا هي فسوف تظل مسكونة به فقد ذاب حبها الفطري لرائحة القهوة، وحبها له وصار الاثنان جزءا من طبيعتها.

- فمنذ أيام كانت هناك مظاهرة ضحمة وكتبت رصاصة اسمه بين تلك القائمة الطويلة لأسماء الشهداء.. هكذا سمعتهم يقولون في حزن وألم.

انطلقت منها بلا إرادة صرخة مدوية، وأحست أن قلبها يطحن بين حجري رحى، وخيمت على عينيها سحابة سوداء امتزجت فيها المرئيات، ومادت بها الأرض وتمايلت فسقطت مغشيا عليها.

تجمع الزملاء حولها يحاولون إفاقتها وعلامات الدهشة والقلق قد علت وجوههم من ردة فعلها عند سماعها الخبر، فأحزانها وآلامها كانتا إعلانا لما حاولت كتمانه.

غادرت مكتبها ولم تعد إليه أبدا... وفى أول يوم عمل لها في مكان جديد فتحت نافذتها فرأته قادما يحمل فنجال قهوته إليها.

المزيد من القهوة

كنتُ في حيرة دائما منذ لقائنا الأول- رغم أننا لم نلتق أبدا - رغم أن الأمر ليس بمحير، بل بسيط جدا، فهل أطلب القهوة التي أعشقها، أم أن القهوة السادة لا تناسب شاعرية اللقاء؟!

وكنتُ مخطئا دائما لأني بالنهاية أطلب القهوة السادة معشوقتي الحاضرة على الدوام، وأجهل إن كنتِ ما زلت تحبين رائحة فنجال قهوتي، أم أن حبك أضحى جافا متحجرا كبقايا القهوة في قَعْر الفنجال؟!

فذلك المشهد البعيد جعلني أخشى كل امرأة تحب رائحة القهوة، وتجري بين شفتيها رشفات من الفنجال، ولا يحسبن أحد أن هذا شئ هش، إنه مؤلم لحد العذاب، وكأن مادة كاوية تُصب في روحك، التي لم يعد بها جراح بل ندبات خافية عن العين، إلا أن آلامها لا تتوقف طالما كنت عاجزا عن النسيان، وهذا يتطلب ذاكرة بِكْرًا، لم تطأها عيناها السوداوان البارزتان اللتان تظللهما رموش كثيفة، وعطرها يسود المكان، ولكنه ليس عطرا حقيقيا، فهو ينفذ من الذاكرة، وقوامها النحيف المائل للطول رسم ثلاثي الأبعاد أنظر إليه، وأنا أسير للوراء، متأملا الفراغ من خلف زجاج مكتبي، ولا أجرؤ على الحركة، وأحاول الحفاظ على اتزاني الذي تهزها بقوة خطواتكِ المترددة في القدوم نحوي- وكما تمنيت أن تأتي بلا تردد، فالتردد يُخيب آمالنا- ووجهكِ ذو البشرة القمحية تكسوه حمرة توشي ببعض الارتباك، فإذا ما دنوتِ حتى يلامس ظلُكِ ظلي أكون فرحا كالأطفال، وتثمر شفتاكِ ابتسامة حلوة طازجة، وقد اشتعلت الحُمرة في قمة خديكِ كجمرة متقدة، وأنت تحملين الفنجال بأنامل رقيقة خائفة على " وش القهوة" من التلاشي والذوبان، بينما أنا من ذاب في

تينك العينين اللتين تجفلان للاستمتاع برائحة القهوة، حتى اختلط داخلي الاثنان، فلم أعد أعرف من أحب..القهوة.. أما من تحب رائحتها؟!

والسنون الطوال التي تمر ببطء شديد جعلت حيرتي تتفاقم وتزداد حول خيالات اللقاء التي تنمو وتزدهر، رغم أن الأمر ليس بمحير بل بسيط جدا، وهو أن طلب المزيد من القهوة السادة رغم أنها لا تناسب شاعرية اللقاء.

وَلَهٌ وكُرْهٌ

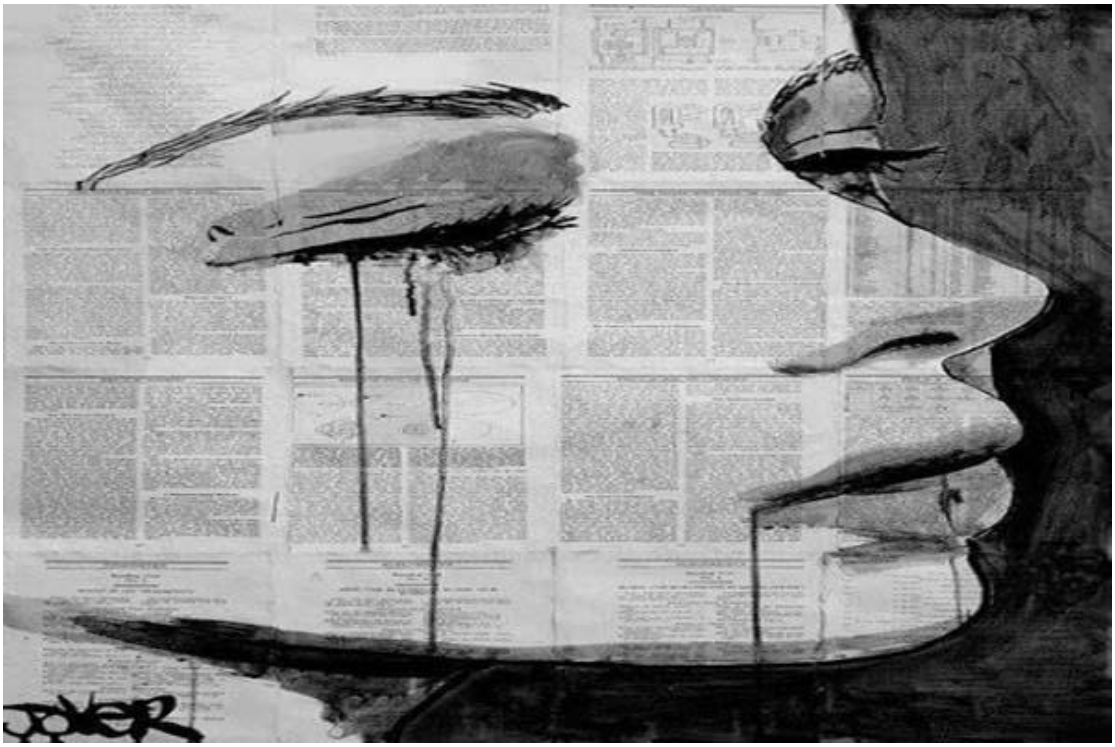

لدي رغبة صادقة في أن أبذل لها كل العون، وإن كان لا يتعدى منحها أُذُنا صاغية، حتى تتوقف عن زيارتها كل ليلة تلك الكوابيس الثقيلة التي لا تغادرها أبدا، فتأتيها نهارا في هيئة أحلام يقظة مرهقة، فقد امتزج داخلها الوله الجارف والكره العنيف، وعندما يجتمع النقيضان يكون هناك دائما صراع يقود نحو الجنون، ولكنه ليس جنونا بل عذابا رهيبا مستعرا في روحها كالنار المخبوءة تحت الرماد، فقد كنت أشعر وهي تحدثني أن أنفاسها المتدفقة عبر نبضات "الواي فاي" تتصاعد من مرجل يغلي حتى تكاد تلفح وجهي وأنا جالس في الظلام، فقد أطفأت المصباح حتى شاشة اللاب توب لتجتمع حواسي كلها في أُذُني، فليس من الإنسانية ألا تجد من يصغي إليها، وقد أوشك لسانها أن يضمر، رغم أن لها مئات الأصدقاء على مواقع التواصل، كانت تتحدث إليهم بأصابعها التي لا تتوقف عن الحركة على لوحة المفاتيح.

حتى أشعر أنها سعيدة من قدرتها أن تجري أخيرا حديثا مع أحد، وإن كان في عالم افتراضي، فصوتها الواهن المتقطع عبر "الشات" ينبئني أن الكلمات تؤلمها كوخز الإبر الذي يجعلها ترتعش، وأن دموعا تنساب رقراقة ساخنة على وجنتيها فتلسعهما، فطلبت منها أن تضع يدها على "الموس"، ووضعت أنا أيضا يدي على

"الموس" الخاص بي، فأحسست أن يدها بيدي، وبدأ صوتها ينتعش وما انقطع منه يتصل، فيأتيني نقيا وكأنها تستخدمه للمرة الأولى، وشعرت أن ابتسامة رضا حزينة ترتسم على شفتيها معلنة استسلامها للقدر، ثم قالت:

لم يكن بوسعي فعل شئ سوى الجلوس والتحديق في اللاشئ كأنني جثة محنطة، وهو يخبرني أن كل ما بيننا انتهى.. ولكنها لم تكمل، وصرخت فجأة باكية بحدة حتى أني شعرت بألم في أذني فأُغُلقتْ عيناي بشكل آلي، وانتابتني رعشة خاطفة، وأنصت، فإذ بها لا تستطيع التنفس، وكأنها تتذكر أنها لم تفعل ذلك حين لوحت يداه بالوداع مطفئة الشمس، لما سكت عنها الغضب حاولت أن تتنفس باستعادة كبريائها ثم ضحكت قائلة سيعود.

فلم أرد إخبارها أنها تعذب نفسها وتراهنها على انتصار مآله المحتوم الهزيمة، فعواطفها التي جففتها الأحزان ، وقلبها الذي جعله الفراق أرضا ميتة ينتظران أن تمطرهما عيناه بدموع التوبة إليها - التي لن تسقط - لتهتز وتربو بالغفران.

تجاهل

عالم ردئ لا يوجد به مكان يخلو من القسوة والألم.. هكذا قال مواسيا نفسه، وهو مضطرب مشوش، فكل شئ داخله يغلي ويفور، فلا يستطيع جمع شتات نفسه التي بعثرتها نظراتها المليئة بالاحتقار والازدراء، وابتسامة باردة جامدة كمكعب من الثلج ترتسم على شفتيها النديتين كزهرة قرمزية في الصباح، اللتين تزمهما للأمام مطيحة برأسها من أسفل لأعلى، فأخذ يضرب الوسادة بيديه، وأنفاسه تتقطع، ولون وجهه يشحب أكثر فأكثر، وهو يرغي ويزبد بكلمات مبهمة حتى أذنه لا تستطيع تفسيرها، قابضا يديه بقوة متوعدا إياها بلذة الغاضب الذي تستحوذ عليه الرغبة في رد الإهانة، فيسترسل في التفكير فيها، ويلتقي بها في الخيال حيث لا أحد سواه، محاولا أن يستبدلها بامرأة أخرى لها نفس القامة الطويلة، والقوام المائل للامتلاء الذي يبرز انحناءات جسدها فتخطف الأبصار، والوجه المربع ذو البشرة الأرجوانية، والعينان المستديرتان البراقتان كعملة معدنية جديدة، ولكن هذا البريق يتبدد كلما طال تفكيره فيها كما يتبدد السراب، فذاكرته البالية كخرقة قديمة تتساقط منها الأشياء تعجز عن استبدال وجهها العابس في عينيه، وتلك النظرات الساخرة المتعالية التي تجعله يعود بالخذلان في كل مرة يحاول فيها الولوج داخلها، فيتوقف عند الحدود رغم أن قلبه يحمل كلمة المرور التي تقرأها في صفحة وجهه، فعندما تلتقط أذنه إيقاع خطواتها من بين الضجيج الذي يحدثه زائرو المرضى في الممر الطويل الذي تتراص على جانبيه حجرات المستشفى، يتجمد من الخوف وتنزلق حبات العرق الباردة على جسده الملتهب، فلقاؤها كابوس، عذاب يصطلي بناره التي

أوقدها الشوق، فحتى الشفقة والعطف لا تجود بهما عيناها على هذا المريض، ولما تدخل الحجرة الأخيرة في الممر تتزاحم الدماء في وجهه الذي كساه السقم باللون الأزرق فيتقد كالجمر وكأنه نار تصحو من تحت الرماد، وعيناه الغائرتان بمحجريهما تراوغان وهو يستجمع شجاعته لينظر إليها بارتباك واضطراب شديدين حتى يكاد صوت دقات قبله العليل يطغى على صوتها وهي تسأل أباها عن أحواله متجاهلة إياه، رغم أن الحجرة لا تحتوي إلا على سريرين متقابلين بجوار كل منهما خزانة صغيرة ذات ثلاثة أدراج، فيضيع رأسه على الوسادة التي كانت تستعد لتتلقى ضرباته بعدما تخرج، ولكن الآلام تتكاثر عليه وتبتلعه كالرمال المتحركة، وهو لا يدري أهي آلام المرض المتراكمة، أم آلام الشوق الذي زاد قلبه وهنا على وهن، واستهلك ما بقى من روحه التى ما كان يهتم منذ نفخت فيه بوجودها في جسده، فهذا الوجود هو الجحيم.

عندما نظر نحوي كلب

في ظهيرة مملة وكأنها لعنة تحل في كل أيام أغسطس، كان جسدي قطعة مطاطية لزجة تنضح بلا توقف بالعرق، بفعل الرطوبة التي تمتص الأكسجين كإسفنجة فأكاد أختنق، وكل شئ حولي متعب منهك جراء الحرارة التي يلفح لهيبها وجهي، فالقيظ في كل مكان بالعالم المكفهر حولي الذي يتحول للون الرمادي عندما يمتزج الهواء الساخن بالأتربة التي تثيرها السيارات المسرعة التي أراقبها من ظل شجرة وحيدة، وسط حقول منسية، وذاكرتي فارغة كبئر جافة، فالحياة ليست إلا مزيجا من الأنفاس الساخنة المتصاعدة من داخلي، وتلك الأتربة نفسها التي تثيرها السيارات المسرعة، والأيام كلها متشابهة وكأنها يوم واحد يتكرر دائما، أرى فيه هذا الكلب منعكسا في ظلي، وهو يلهث مخرجا لسانه الأرجواني الباهت، ولعابه يتساقط، وبطنه يعلو ويهبط مع كل شهيق وزفير، فأنفاسه تتلاحق محدثة صوتا أشبه بالحشرجة، وقد نحل شعره عن جسده الذي صار عِصِيّ خشبية تشكل هيكلا لكلب، حتى ذيله الذي سقط بين قدميه الخلفيتين يبدو كقطعة من الجلد القديم الرث، وأذناه تتدليان كورقتين يابستين توشكان على السقوط، محركا رأسه للخلف كلما لدغته الحشرات التي تستوطن جلده الأحمر الملتهب، فينظر نحوي وعيناه تدمعان في صمت، فقد توقف بشكل اختياري عن الكلام، لأن لا أحد يسمعه في عالم ملئ بالكلاب، فيظل بلا

حراك يراقب الأرض وهي تدور، والأمطار تحول الأتربة إلى طين في الشتاء، فأرى الوجوه التي كانت تتشكل في الأتربة المتصاعدة من السيارات، في السحب المتراكمة في السماء، فأحدثها عن موعد تكفل القدر بتحديده منذ بدأ العمر، ولكني أجهل بأي أرض يحل، ليمنحني السعادة التي ربما تأتي بعد قليل، أو بعد عام ، أو بعد دهر ، فأخذت نفسا عميقا وفكرت في بقايا سؤال منسي من الماضي، أن الأمر قد يكون ممكنا في الحاضر، فلم يعد بوسعي انتظار القدر ، خاصة وأنا لست بغريب عن الجحيم ، وكل ما أحتاجه لدخوله مرة أخرى وهو التخلص من مخاوفي، والاستجابة للكلب الذي كان بلا اسم، وبلا صاحب، فمازال ينظر نحوي وعيناه تسيلان بخطين فضيين لا يجفان في هذه الظهيرة الحارة الرطبة، فأجره وظلي وأقذفهما معا تحت السيارات المسرعة.

أبدًا.. لن ترحلي

وسط زحام الصعود والنزول من عربة المترو توقفت على الرصيف وعيناي تلمعان ببريق ساطع سرعان ما خفت مع تحرك المترو، فابتسمت وأنا واجم شارد الذهن، فقد تراءى لي أن عينين تتفرسان فيِّ تفرسا قويا، ولكن الزحام منعني من معرفة مصدر تلك النظرات، ربما خيالي المضطرب القلق قد صور لي ذلك، فدائما ما تنتابني تلك الأوهام في محطة مترو السادات، فتختلط عليِّ الأشياء، وتتشابه في عيني الوجوه فأراها وجها واحدا، وكما حاولت أن أقطع كل ما يربطني بهذا المكان، ويشدني إليه، واستأصل ذكرياته، فرغم أني ألقيتها في الركن الأعمى من ذاكرتي ، إلا أنها تنبجس في عيني آليا بمجرد دخولي المترو، فأقف في ظلها كما أقف الآن، ووجهي قطعة من الخشب، لها أذنان لا تسمعان إلا الصمت، وعينان تحدقان في اللاشئ، والأسئلة تتدافع داخلي محدثة دوامة تكاد تبتلعني، فأحاول التماسك حتى لا تنفلت مني صرخة، وأدافع عن نفسي وأنا مشمئز منها، فلو كنت أجبت عن سؤالها، ما فقدت نسخة مني.

ولكن ما كان لها أن تسأل، فالحب لا تنفيه أسئلة، ولا تؤكده إجابات، وعندما تعرف لماذا لم أجب، لن يسعها إلا إن تغفر لي.. ولكنه غفران لا يُنجي من العذاب، فقد كنت أدرك أنها ستضيع لو بقيت معي، وأني سأضيع إلا لم تبق معي، وها أنا أقف

على الرصيف ولا أعرف أذاهب أم آتٍ...ولا أعرف إن كنت أعيش اليوم الخالي مني ومنها، أما أمس الذي كانت ملؤه؟!

إنه إحساس ثقيل الوطأة على نفسي التي ما عادت تحتمله وتطيقه، فغادرت المحطة وقدماي تتكاسلان، ولكن وأنا في طريقي للخروج كان هناك ظل يلاحقني ويطاردني، ظل أشعر بثقله على ظلي، له نفس العينين اللتين كانتا تتفرساني وسط الزحام ، فاشتريت تذكرة وعدت لمكاني على الرصيف، وأنا كلي ثقة أني سأرى تينك العينين، وقد جرى بعض الدم في وجهي الخشبي، فأصبح شاحبا، وابتسامة حائرة تلتصق بشفتي الزرقاوين، وعيناي اللتان صبغهما التعب بلونه الأحمر تراقبان الرصيف الذي ما يكاد يزدحم بالوجوه حتى يُفرغها في عربات المترو، ويزدحم من جديد بأخرى، وفي كل مرة أحاول أن أستحضر من بين هذه الوجوه وجه امرأة لا ترحل أبدا من داخلي، لا أرى إلا صورتي المنعكسة على الزجاج في تتابع سريع كلما مر المترو.

دقيقتان

أخاف ألا أجد لسؤالي إجابة لديها لذا كنت أسأله لنفسي، وكلما أوشك على الإمساك بالإجابة أشعر أن شيئا ما صحيحا يكاد يتخذ مكانه داخلي ثم يضيع وسط الفوضى التي تُحدثها عيناها المثبتتان نحوي، ووجهها شديد الاهتياج والاضطراب، وكأنها ترتكب جريمة ما وتحاول الاختباء، ولكنها كانت تختبئ في ضوء النهار، فالخيل التي تركض داخلها قادمة نحوي.. تركض داخلي، محدثة ضجيجا صاخبا أسفل الصمت البارد الذي نتقاسمه.

وبينما كل منا يختلس كعادتنا النظرات للآخر ، التقت نظراتنا على حافة اللوح الزجاجي الفاصل بيننا، فإذ بابتسامة ندية طازجة تزهر في شفتيها القرمزيتين، فيتوهج ضوء في مقلتي الحزينتين، وأشعر بدماء تجري في وجنتي الشاحبتين، ففي تلك اللحظة أذابت ابتسامتها سلسلة جبال الجليد القائمة على حافة اللوح الزجاجي، وأخرجت كلامي من شرنقته، فوجدتني أمد يدي المرتعشة إليها قائلا:

- صباح الخير

ردت وشفتاها مازالتا مشرقتين بابتسامتها التي أزهرت على تلك الحافة الزجاجية، قالت وهي تبتسم ويدها تحتفظ بيدي:

- أشعر أن في يدي جمرة ترتعش.

استجمعت ما تبقى لدي من قوى، وابتسمت في ارتباك وحبات العرق الباردة تنزلق على عمودي الفقري، وقلت :

- وأنا أيضا.

وفي صمت مرت لحظتان ، وفي راحتينا تحدث قلبان.

وسرى داخلي إحساس لا أدري كنهه، ولكنه يدغدغ مشاعري.. يجعلها بِكرا طاهرة كمشاعر طفل، فأشعر بلذة في أعماق الروح، تدفعني للاحتفاظ بيدها في يدي، ومخيلتي تسترجع ومضات من حلم قديم.. ونحن نسير معا في مساء خريفي، والهواء يحمل رائحة الشتاء، فنسمات الهواء الباردة تصافح وجنتيها فتجعلهما ورديتين منتعشتين، وقرص الشمس نحاسي اللون يسقط ويسقط وراء الأشجار التي تتمايل مع الهواء كاشفة عن ضوئه الواهن الذي يعكس جسدينا في ظل واحد يمتد على الأرض، ثم يتلاشى الضوء والظل، كما تتلاشى الحدود بين الواقع والحلم، ففجأة حررت يدها من هذا العناق الحار بعنف، فارتطمت أناملها بحافة الزجاج، وكأنها تريد أن تنفض عنها آثار ما جرى خلال الدقيقتين الماضيتين بالوجع الذي ينتقل من الأنامل إلى الجسد، فتعتصر عينيها وتضغط شفتيها، محركة أصابعها بشكل عمودي من أعلى لأسفل لتخفيف حدة الوجع الذي صنع دائرة ضمني قطرها فتألمت من أجلها.

وأسدلت جفوني على صورتها خلال الدقيقتين اللتين ركضت فيهما الخيل عابرة الحدود لأقبض على الإجابة بيدي، ولكنها كانت أشد عذابا من السؤال، فكلما يمر يوم أجد بيدي جمرة ترتعش.

كيف أموت؟!

قطعت كلامها فجأة، والتفتت نحوي وعيناها السوداوان الصافيتان اللتان مازال الفرح بلقائنا يلمع فيهما كالنجوم تحدقان فيِّ، وتقاسيم وجهها تعبّر عن الدهشة والاستغراب، ثم سألتني:

- فيما تفكر؟!

فقد كنت أسمعها منذ التقينا، ولكن لم أستطع قول أي شئ، فربتت على كتفي مكررة سؤالها، فأجبتها بابتسامة ثقيلة قائلاً في لامبالاة:

- لا شئ

قالت بصوت عذب ممزوج بأنوثة ودلال:

- كنتُ أظن أنك ستقول أفكر فيكِ!!

رددت بفتور يتناقض مع شاعرية اللقاء، وأنا أجتر الكلمات:

- نقول ذلك عندما نريد أن نكذب

قالت في نفسها لا أكره فيك شيئاً غير هذا الصدق السخيف الأحمق، ونظرت نحوي وهي لا تستطيع إخفاء ضجرها وغضبها البادِيين في إحمرار وجهها، وسألت:

- لماذا لا تكون كاذباً؟!

انفرجت شفتاي بابتسامة لا إرادية، بها مِسحة من الحزن والألم، وأنا أسخر من نفسي، وألتمس لغضبها وضجرها الأسباب، لذا عدت إلى الصمت.

فأشاحت بوجهها عني، ولوّحت بيدها عابسة، وقالت وفي نبرة صوتها المتقطع ألم وحزن:

- لو ظللت هكذا سأمضي ولن تراني ثانية، فأنت تسخر مني بصمتك.

قلت في هدوء:

- هناك من يسخر منا نحن الاثنين!

رفعت حاجبيها متعجبة، وأفلتت يدي من يدها، وقالت شاهقة:

- آه .. رجعنا للفلسفة مرة أخرى

والتفتت نحوي، ورمتني بنظرة حادة، وقالت بسلطوية:

- ألم تعدني بالتوقف عن القراءة؟!

- لم أقرأ كلمة منذ عام

قالت في حدة والغضب يتقد في وجهها:

- أنت تكذب

- لقد طلبت مني منذ قليل أن أكون كاذباً

ضربت الأرض بقدميها، وتحوّل غضبها إلى هياج عصبي جعلها تفقد بوصلتها، فقد انتفخت أوداجها، وبدت من عينيها كراهية عاصفة تكاد تطفئ ما تبقى من ضوء يُنير علاقتنا، ونظرَت نحوي وهي تتفحص وجهي في تحدٍ، وتقاوم رغبة جامحة تلح عليها في صفعي، وقالت على غير المتوقع بصوت خفيض وهي تكتم شهيقها:

- أرجوك توقف

- عن الصمت أم الكلام، عن الكذب أم الصدق؟

- توقف عن إخافتي .. هكذا قالت بمرارة وحسرة وهي تُغمض عينيها برفق.

قلتُ في اضطراب:

- أنا أحبك

ردت بصوت قادم من أعماقها، وهي ترفع عينيها المضطربتين كالبحر نحوي، ويداها متشابكتان بقوة وكأنها تستجمع كل ما تبقى لديها من قوة:

- بل تخيفني لحد الرعب

ثم أمسكت يديّ فجأة بقوة وكأنها تعتصرهما وهي تبكي، والعبرات تكاد تخنقها، ثم قالت بصوت متهدج ودموعها تتساقط على يديّ:

- توقف عن تلك الأشياء المخيفة

نظرتُ إليها في حنان كأم تنظر لطفلها الباكي، وأنا أسألها في صمت عن أشيائي المخيفة؟!

فأجابتني بصوت ضعيف خائف، وهي تقبّل يديّ المبللة بدموعها:

- توقف عن التفكير، عن القراءة، عن الكتابة

ثم رفعت رأسها ونظرت نحوي في رقة وعذوبة دمعة مازالت عالقة بعينيها قائلة:

- مثلك مات دون أن يدري به أحد في مستشفى للأمراض العقلية أو معتقل.

ابتسمت.. ونظرت في عينيها الممتلئتين بالخوف والآمال، ويداي تحتضن يديها، وأنا أتحدث معها في صمت عن الأحاسيس التي تختلج بداخلي، والأفكار التي تسكن دماغي، فبينما كانت تتحدث في بداية لقائنا عن الحب والشوق والعمر الذي ينتظرنا.. وحرارة جسدها تسري عبر يدينا المتشابكتين في جسدي البارد كجثة، كنت أفكر أني لن أموت كما تظن دائماً كمجنون أو في معتقل، فعما قريب سأنتحر..

فالوطن إما مستشفى للمجانين الذين يظنون أنهم أحرار، وإما معتقل للعقلاء الذين يحلمون بالحرية.

سحبت يديها من بين يديّ، وهي تبتسم مسدلة جفنيها على صورتي المنعكسة في مرآة عينيها وقالت في يأس:

- لا فائدة.. فكلما رجوتك التوقف عن إخافتي، كانت إجابتك الصمت.

ومضت ولم تلتفت نحوي .....

الفهرس

رقم الصفحة	الموضـــــــــــــــــــــــــــــــــوع
٣	باقة ورد حمراء
7	لغة الدمع
9	اسمها زينب
11	زينة تكره الشتاء
14	جنون
17	شئ ما يبقى
19	سؤال
21	شات
23	وكأني أعرفها
25	حياتي ككلب
27	أيامي البعيدة
30	صباح اليوم
٣١	حب افتراضي
33	لا شيء من أجلها
35	رائحة القهوة
37	المزيد من القهوة
39	وَلَهٌ وكُرْهٌ
41	تجاهل

عندما نظر نحوي كلب	43
أبداً لن ترحلي	45
دقيقتان	47
كيف أموت	49

تمت

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الصور والرسوم منسوبة لأصحابها

من على الانترنت

للتواصل:

https://www.facebook.com/reda.abdallah.96

redanayel@gmail.com

ذلك المشهد البعيد جعلني أخشى كل امرأة تحب رائحة القهوة، وتجري بين شفتيها رشفات من الفنجال، ولا يحسبن أحد أن هذا شئ هش، إنه مؤلم لحد العذاب، وكأن مادة كاوية تُصب في روحك، التي لم يعد بها جراح بل ندبات خافية عن العين، إلا أن آلامها لا تتوقف طالما كنت عاجزا عن النسيان، وهذا يتطلب ذاكرة بِكْرًا، لم تطأها عيناها السوداوان البارزتان اللتان تظللهما رموش كثيفة، وعطرها يسود المكان، ولكنه ليس عطرا حقيقيا، فهو ينفذ من الذاكرة، وقوامها النحيف المائل للطول رسم ثلاثي الأبعاد أنظر إليه، وأنا أسير للوراء، متأملا الفراغ من خلف زجاج مكتبي، ولا أجرؤ على الحركة، وأحاول الحفاظ على اتزاني الذي تهزها بقوة خطواتكِ المترددة في القدوم نحوي- وكما تمنيت أن تأتي بلا تردد، فالتردد يُخيب آمالنا- ووجهكِ ذو البشرة القمحية تكسوه حمرة توشي ببعض الارتباك، فإذا ما دنوتِ حتى يلامس ظلُكِ ظلي أكون فرحا كالأطفال، وتثمر شفتاكِ ابتسامة حلوة طازجة، وقد اشتعلت الحُمرة في قمة خديكِ كجمرة متقدة، وأنت تحملين الفنجال بأنامل رقيقة خائفة على " وش القهوة" من التلاشي والذوبان، بينما أنا من ذاب في تينك العينين اللتين تجفلان للاستمتاع برائحة القهوة، حتى اختلط داخلي الاثنان، فلم أعد أعرف من أحب..القهوة.. أما من تحب رائحتها؟!

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف